كتب الإبل

- ٢ -

وفي القرن الرابع ألف أبو الحسن علي بن الحسن الهُنائي المعروف بكُراع النمل (الذي كان يعيش ٣٠٧ هـ) كتاب « المنتخب والمجرد » ، وتوجد قطعة مخطوطة منه بدار الكتب بالقاهرة ، محفوظة برقم ٨٥٨ لغة . وتحتوي على باب خاص بسمات الإبل وغيرها ، يشغل حوالي ثلثي صفحة من القطع الكبير (الورقة ٤٨ .

ويقوم منهج المؤلف في الباب على تقديم اللفظ اللغوي ثم إيراد تفسيره . ويعتمد التفسير على إبانة موضع السمة أو شكلها أو الاثنين معا . وأشار مرة إلى كل من اشتقاق اللفظ ، وجمعه ، والفعل منه ، والجماعة التي تتخذ هذه السمة . ولم يورد من الشواهد غير بيت من الشعر لم ينسبه إلى قائله .

ونمثل لهذا المنهج بقوله : « اللِّحاظ : سمة في مؤخر عين البعير ، مشتق من لَحْظ العين ، وهو النظر بمؤخرها . والقُرْعة : سمة خفية على وسط أنف البعير والشاة . والعِلاط : سمة في العنق بالعرض . العِلاب : سمة في طول العنق تكون شبراً أو أقل . والفِرْقاج : سمة أيضاً ... والصَّيْعَرية : سمة لأهل اليمن في أعناق الإناث خاصة . ومنها الرَّعْلة : وهو أن يشق من الأذنين ثم يترك معلقا » .

وفي هذا القرن أيضاً ألف أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي [1] (ت ٣٥٦ هـ)

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين ١٧٩ . ابن خير : فهرسة ٣٥٥ . ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٢٩ . السيوطي : البغية ١٩٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كتاب الإبل ، وكان في خمسة أجزاء [١] ، ولكنه لم يقع للباحثين بعد ، ولا نعرف عنه شيئاً آخر .

وفي القرن الخامس ألف محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي (ت ٤٢١) كتاب « مباديء اللغة » . وأفرد للإبل فيه باباً يشغل قريباً من صفحة (١٤٣ — ١٤٤) ، على نقيض اهتمامه بالخيل . وبدأ هذا الباب وختمه بألفاظ عامة تطلق على الإبل أو الذكور أو الإناث خاصة ثم ذكر أسماءها في مراحل العمر المختلفة .

قال [٢] : « الإبل : جمع لا واحد لها من لفظها ، والذكر منها : جَمَل والأنثى : ناقة . والبعير : يقع عليهما . قال :

لا تشتهي لبن البعير وعندنا عَرَقُ الزجاجة واكفَ المِعْصار

وقد نُتجت الناقة . والقائم عليها : ناتج ، وهو المُذَمِّر . والولد حين يُستَلُّ من أمه : سَليل ، ثم حُوار ، إلى سنة ، وجمعه أَحْورة وحيران . وفَصيل : إذا فُصل عن أمه . وهو في السنة الثانية : ابن مَخاض » .

ونثر أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (ت ٤٢٩) عدة فصول عن الإبل في الأبواب المختلفة من كتابه « فقه اللغة » . وعالج في هذه الفصول التي تبلغ ١٧ فصلا : سمن الإبل وهزالها ، وألوانها ، وسماتها ، وسماتها في أعمارها المختلفة ، وأوصاف فحولها ، وما يركب منها ، وأوصاف النوق عامةً وعند نتاجها وحلبها ومع أولادها ، وضروب سيرها ، وورودها الماء ، وأصواتها ، وجماعاتها ، وما يجعل في أنوفها . ولم يعقد الفصل أحياناً على أساس سليم ،

---

(١) ابن خير : فهرسة ٣٥٥ .

(٢) ١٤٣ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فجعل لسير الإبل ثلاثة فصول متوالية : الأول في تفصيل ضروب سيرها [١] ، والثاني في ترتيب سيرها عن النضر بن شميل [٢] ، والأخير في مثل ذلك عن الأصمعي [٣] . ولا كبير خلاف بين الفصول الثلاثة ، والأخيرين خاصةً .

وصرح المؤلف في بعض الفصول أنها مأخوذة كلها عن أبي عبيد في الغريب المصنف ، الذي كان قد أخذها عن أبي زيد والأصمعي [٤] ، أو مأخوذة عن ثعلب عن ابن الأعرابي [٥] ، أو عن الأصمعي وغيره [٦] ، أو عن الأئمة دون تحديد [٧] . وكذا صرح في داخل بعض الأبواب بأن بعض الصيغ مأخوذ عن الكسائي [٨] ، أو أبي زيد [٩] ، أو الأصمعي [١٠] ، أو أبي عمرو [١١] ، أو الفراء [١٢] . والواضح أن جُلّ اعتماده على الغريب المصنف لأبي عبيد ، وإن كان تصرف في عبارته .

ويتمثل منهجه في إيراد الحالة التي يتكلم عنها أولا ثم يطلق عليها اللفظ أو الألفاظ التي تنطبق عليها ، وقد يورد اللفظ أولاً ثم يفسره . وفي بابي

---

(١) ٢٩١ . (طبع مصطفى محمد ١٩٣٨) .
(٢) ٢٩٣ .
(٣) ٢٩٣ .
(٤) ٩٨ .
(٥) ٩٩ .
(٦) ٢٩٤ .
(٧) ١٣٩ ، ٢٤٦ ، ٢٤٩ ، ٢٩١ .
(٨) ٢٥٠ ، ٢٩٢ ، ٢٩٤ ، ٣١٦ ، ٣٣١ .
(٩) ٢٥٠ ، ٢٩٢ .
(١٠) ١٤٨ ، ٢٩١ .
(١١) ١٤٨ ، ٢٩٢ .
(١٢) ٢٩٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ترتيب هزال البعير [١] ، وترتيب سير الإبل عن النضر [٢] ، اكتفى بإيراد الألفاظ ، وترك تفسيرها لدلالة الترتيب عليه . ولم يعن بالتنبيه على الفعل أو الصفة أو المفرد والجمع أو المذكر والمؤنث من اللفظ الذي يأتي به . ولم يأبه للشواهد ، ما عدا حديثاً شريفاً [٣] وخبرين نثريين [٤] ذكرهما فيما يبدو مغلطفا . وأشار مرةً إلى أن اللفظ وارد في شعر الأعشى [٥] ، كما أومأ مرةً إلى اشتقاق لفظ [٦] ، وأورد مرتين معنى استطراديا لأحد الألفاظ [٧] . وبيّن أن المؤلف كان يرمي إلى الايجاز في أبوابه ومادته اللغوية وعلاجه لها .

وهذا مثال لمنهجه ، قال [٨] : « إذا أخرجت الناقة صوتاً من حلقها ولم تفتح به فاها قيل : أَرْزَمَتْ (وذلك على ولدها حتى ترأمه) . والحنين : أشد من الرَّزَمة . فإذا قطعت صوتها ولم تمدّه قيل : بَغَمت وتزغّمت .... فإذا بلغ الذكر من الإبل الهدير قيل : كَشْ فاذا زاد عليه قيل : كَشْكَشَ وقَشْقَشَ . فإذا ارتفع قليلا قيل : كَتَّ وقَبْقَبَ . فإذا أفصح بالهدير قيل : هَدَرَ . فإذا صفا صوته قيل : قَرْقَرَ . فإذا جعل يهدر كأنه يَقْصُره : زَغَد . فإذا جعل كأنه يقلعه قيل : قَلَخ » .

---

(١) ٩٩ .
(٢) ٢٩٣ .
(٣) ٢٤٧ .
(٤) ٢٤٧ ، ٢٩١ .
(٥) ٢٥١ .
(٦) ٢٤٩ .
(٧) ٢٥٠ ، ٢٩٤ .
(٨) ٣١٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وعقد ابن سيده (ت ٤٥٨) كتابا للإبل في موسوعته الكبيرة « المخصص » يكاد يشغل السفر السابع كله (٢ - ١٧٥) . وجمع فيه المؤلف كل ما يتصل بالإبل ، فوقع في ٨٨ فصلا ، نستطيع أن نقول إن الترتيب العام لها على النحو التالي : الفصول المتعلقة بنتاج الإبل وأولادها وإرضاعها وأعمارها ، فالفصول الخاصة بأعضائها ، فالخاصة بضخامتها وهزالها ، فأصواتها ، فطعامها وشرابها ، فأنواع سيرها ، فجماعاتها ، فأدواتها ، فسماتها ، فعيوبها وأمراضها وعلاجها . وهناك فصول أخرى مفردة أو صغيرة بين ما ذكرت ، وفصول متصلة الموضوع وفرّق بينها المؤلف ، ولذلك لا أستطيع أن أنسب إلى ابن سيده ترتيبا ملتزما وإنما اتجاها عاما نحو الترتيب .

وبدأ الكتاب بتعريف لفظ الإبل ، وتجلية نواحيه اللغوية جميعا . قال[1] : « الإبل : اسم واحد يقع على الجميع ، ليس بجمع ولا اسم جمع إنما هو دالّ عليه . والإبْل مخفف عنه . وجمعها آبال ، كسُتْر إذ كانوا قد يكسرون الجمع واسم الجمع ، فهذا أولى لأنه واحد وإن دلّ على جميع كما قالوا : أراهط . قال سيبويه : وقالوا : إبِلان ، لأنه اسم لم يُكسَّر عليه وإنما يريدون قَطيعَيْن . علي : إنما ذهب سيبويه إلى الإيناس بتثنية الأسماء الدالة على الجمع ، فهو يوجهها إلى ألفاظ الآحاد ، ولذلك قال : وإنما يريدون قَطيعَيْن » .

وكذلك مال في الفصول إلى أن يبدأها بإبانة مفهوم اللفظ العام الذي تقوم عليه ، أو يدور الفصل حوله . ثم يورد ألفاظ الفصل . قال في صدر باب حمل الإبل ونتاجها[2] : « النتاج : اسم يجمع وضع جميع البهائم ، وقيل :

---

(١) ٢ .

(٢) ٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هو في الناقة والفرس ؛ وهو فيما سوى ذلك نَتج . والأول أصح . وقيل : النتاج في جميع الدواب ، والولاد : في الغنم . وقد نَتَجْتُها نَتْجاً ونِتاجاً ، وأنْتَجْتُها . ونَتَجتْ . فأما أحمد بن يحيى فجعله من باب مالا يُتكلَّم به إلا على الصيغة الموضوعة للمفعول . أُنْتِجَت ونُتِجَتْ وأَنْتَجت الناقةُ : وضعت من غير أن يَليها أحد » .

والتزم المؤلف ترتيب أبي عبيد لأبواب غريبه المصنف في بعضها (انظر الضبعة والضراب ، وحمل الإبل ونتاجها ، وصفات الإبل في النتاج مثلا [1]) ، وأهمله في بعضها الآخر (انظر أسماء ما في الإبل من خلقها وغيره [2]) .

وأدخل أبواب الغريب المصنف كلها في كتابه ، والتزم مادتها اللغوية الأساسية . ولكنه حذف أكثر أسماء اللغويين الذين ذكرهم أبو عبيد وعزا مادته إليهم ، واكتفى ابن سيده بأن نسب المادة إلى أبي عبيد نفسه .

وكان همّ المؤلف الاول أن يجلو اللفظ الذي يورده من جميع جوانبه . فكان يقدمه ، ويورد أقوال كثير من اللغويين الذي تعرضوا له ، مبيّنين معناه أو صيغه أو مصادره أو الصفات منه أو الأسماء ، والمفردات ، والجموع ، والمرادفات والاشتقاق ، وأحياناً التوضيح أو التعليل النحوي أو الصرفي . فكان اللفظ يخرج إلى كتابه مكتمل النواحي متضح الجوانب . يقول [3] : « أبو عبيد : العَنَق من السير : المسبطرّ . قال أبو علي : يعني الممتد . ابن دريد : وهو العَنيق ، وقد أعْنَق . غيره سيرٌ عَنَق ، وناقة مُعْنِق ومِعْناق وعَنيق ، أبو عبيد : السَّبْت : العَنَق ، وقد تقدم أنه السير

(١) ٢ ، ٨ ، ١٧ .
(٢) ٤٧ .
(٣) ١١٤ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

السريع . غيره : عَنَق خِطْرِيف : واسع ، من قولهم : خَطْرَف في مشيه وتَخَطْرف ، وأنشد :

إذا تَلقَّته الجرائيمُ طفا وإن تلقَّى غَدَرا تَخَطْرفا

وكان جل اعتماده في النواحي اللغوية على أبي عبيد ، وابن السكيت ، وأبي زيد ، وابن دريد ، وصاحب العين (لم يُسمِّه احترازا) ، والأصمعي ، وأبي حاتم ؛ وفي النواحي الصرفية والنحوية على سيبويه ، والرماني ، والسيرافي ، والفارسي . ولكنه لم يقتصر عليهم ، بل أخذ عن كثيرين غيرهم مثل أبي عبيدة ، واللحياني ، وأبي الخطاب الأخفش ، وأبي علي القالي ، وابن الأعرابي ، وأبي عمرو ، وأبي حنيفة الدينوري ، وثعلب ، وابن جني ، وقطرب ، وغيرهم . وواضح أن المؤلف جمع ما ألفه أعظم اللغويين في الإبل ، وأشهر المعاجم في أيامه ، واستقى مادته من النوعين من الكتب جميعا ، ولم يفعل ذلك أحد قبله . ولكنه لم يستغرق جميع ما أوردته هذه الكتب ، بل مال إلى الاختصار ، وخاصةً في الشواهد فحذف أكثرها .

قال [1] : « إذا بلغ الذكر من الإبل الهدير ، فأوله الكَشيش ، وقد كَشَّ يكشّ كشيشا ، وأنشد :

هدرت هدراً ليس بالكشيش

ابن دريد : وكذلك الكَشْكَشة . السكري : وربما سُمِّي رُغاء الفصيل إذا كان ضعيفا : عُواء . أبو عبيد : فإذا ارتفع قليلا قيل : كتّ يكت كتيتا . فإذا أفصح بالهدير قيل : هدر يهدر هدرا وهديرا . سيبويه . وهو التَّهْدار ، وإنه لَهَدّار . أبو حاتم : رجّع البعير في شِقْشِقته : هدر .

(١) ٧٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أبو عبيد : فإذا صفا صوته ورجّع قيل : قَرْقَر ، والاسم القَرْقار . وأنشد :

جاء بها الرَّوّاد يحجز بينها صدى بين قرقار الهدير وأعجما

ابن دريد : ثم كثُر ذلك حتى قيل للحَسَن الصوت : قَرْقار . فإذا جعل يهدر هديرا كأنه يعضره قيل : زغد يزغد زغدا ، وأنشد :

بغيٍ وبخباخ الهدير الزَّغْد

أبو عبيدة : هو الكثير الذي لا يكاد ينقطع . صاحب العين : هو الشديد ، وقيل : هو الذي يتردد في الشقشقة . أبو عبيد : فإذا جعله كأنه يقلعه قلعا قيل : قَلَخ يقلخ قَلْخا وقَليخا ، وهو قلاّخ . صاحب العين : وقُلاَخ » .

وتناول الخطيب التبريزي يحيى بن علي (٤٢١ — ٥٠٢) كتاب الألفاظ لابن السكيت ونقّحه ، وسماه « تهذيب الألفاظ » . وأبقى الخطيب على بابي الإبل اللذين كانا في الألفاظ ، ولم يزد عليهما أبوابا أخرى في تهذيبه ولم يجر أي تغيير في داخل البابين ، وإنما أضاف إلى مادتهما بعض الشواهد . فأتى بشواهد على ألفاظ لم يكن ابن السكيت قد استشهد عليها ، وأضاف شواهد على ألفاظ كان مستشهدا عليه ، وشواهد على معان استطرادية تطرّق هو اليها .

وفي القرن السادس ألف ابن الأجدابي الطرابلسي إبراهيم بن إسماعيل (ت قبل ٦٠٠ هـ) « كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة العربية » ، وهو كتاب صغير كل الصغر . وأورد فيه ثلاثة أبواب عن الابل ، تشغل منه نحو سبع صفحات (١٧ — ٢٣) . وسمي الباب الأول « الابل » . وجعل فيه ثلاثة فصول متميزة ، إلى جانب صدره . وعالج في صدره أسماء الابل في أعمارها المختلفة ؛ وفي الفصل الأول اسماء الابل العامة ، وما يطلق منها على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الذكور والاناث والصغار والكبار كلا على حدة ؛ وفي الفصل الثاني بعض صفات الابل الضامرة والشديدة والغليظة والخفيفة والكريمة وغيرها ؛ وفي الثالث جماعاتها . وجعل الباب الثاني لألوان الابل ، والثالث لسيرها . وميّز في الباب الأخير قسما خاصا ، جعل عنوانه « من ضروب السير » ، ولا فرق بينه وبين بقية الباب .

وبيّن في الأبواب الايجاز الشديد الذي يلتزمه مؤلفه ، حتى إنه يقتصر على قليل من الألفاظ ، ويأتي باللفظ ثم يورد تفسيره مجملا كل الاجمال فلا يتضح الفرق بينه وبين نظرائه من الألفاظ ذوات المعاني المتقاربة . بل أورد في القسم الأخير من الباب الثالث مجموعة من الألفاظ دون أن يفسرها ، واكتفى بأن قال بعد أن فرغ منها [1] : « كل هذه أنواع من السير سريعة » . ولم يهتم كثيرا بايراد الصيغ المختلفة من اللفظ الذي يورده . واختفت عنده الشواهد ، غير أنه ختم باب ألوان الابل بثلاثة أقوال سائرة عن بعض هذه الألوان .

قال [2] : « الذود من الابل : ما بين الثلاث إلى العشر . والصَّرْمة : فوق ذلك إلى الأربعين . والهَجْمة : فوق ذلك إلى ما زادت . والعَكْرة من الابل : ما بين الخمسين إلى السبعين . وهُنَيدة : المائة من الابل ... »

وفي العصر الحديث أخرج الأستاذان عبد الفتاح الصعيدي وحسين يوسف موسى كتابهما « الافصاح في فقه اللغة » عام ١٩٢٩ م . وجعلا الباب الثاني عشر منه للحيوان والوحوش والطيور والحشرات ، فخصصا اثني عشر فصلا منه للابل ، وسبعة لسيرها (٣٤٥ — ٣٦٥) . وقدما فصول ضراب الابل .

(١) ٢٣ .
(٢) ٢٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وحملها ، ونتاجها ، وعطفها على أولادها ، ونموتها في أخلافها وحليها ولبنها ، ثم نموتها في قوتها وضعفها وألوانها وأوبارها ، ثم أصواتها ، ثم طعامها وشرابها ، ثم أصواتها وإفرازاتها . ورتب فصول سيرها على السير اللين ، وسوقها وحدائها ، وسيرها العنيف ، ثم خطمها ، ثم عيوبها وأمراضها ، وأدوات ركوبها .

وكان هدفها في الكتاب تهذيب مخصص ابن سيده وتلخيصه . والصلة بيّنة بين فصول الكتابين ، غير أن مؤلفي الافصاح أجريا بعض التغيير على ترتيب الفصول ، ومحتوياتها . فوضعا مواد مفرقة على أكثر من فصل في المخصص في فصل واحد من كتابهما ، والتقطا المواد اللغوية ووضعاها في الفصول دون مراعاة لترتيبها في المخصص . وعمدا إلى التقاط ما اختاراه من مواد وأهملا غيره . وقد صرحا في مقدمتهما [1] بأنها تاركان ما لا تدعو إليه الحاجة في الاستعمال الذائع ، ومثبتان من الروايات أتمها مادة وأظهرها معنى وأوفاها اشتقاقا . كذلك تركا الشواهد ، والروايات ، والأقوال النحوية والصرفية . فخرج كتابهما في مجلد واحد صغير .

وحافظا على عبارة ابن سيده فلم يدخلا عليها إلا قليلاً جداً من التغيير ، وأضافا بعض التنبيهات على المذكر والمؤنث من الالفاظ ، وعلى أبواب الأفعال التي يوردانها . ووجدت قليلاً جداً من الألفاظ التي لم أعثر عليها في الفصول المقابلة من المخصص . وبعضها أخذاه من فصول أخرى من المخصص نفسه ، وبعضها الآخر أخذاه من غيره من الكتب اللغوية التي أفادا منها ، وأشارا إليها في مقدمتهما ، كالقاموس المحيط للفيروزأبادي وغيره [2] .

وحاولا أن يسهلا على القارىء الوصول إلى طلبته من الألفاظ ، فقدّما كل

---

(١) ث .

(٢) ث .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لفظ يراد تفسيره إلى أول سطر جديد ، ووضعا إلى جانبه نجمة لتلفت النظر إليه ، وقسّما الصفحة إلى نهرين . وهذا مثال من فصل الأصوات [1] .

« * البُغام ـ صوت ذي الخف إذا بدا وقد بغمت الناقة تبغم .

* الرُّغاء ـ رغا البعير يرغُو رغاء : صوّت فضجّ ، وناقة رَغُوّ كثيرة الرغاء ، وأرغيتها حملتها عليه .

* الحَنين ـ حنّت الناقة طربت في أثر ولدها ، حنّت تَحِنّ حنينا .

* الكَشيش ـ أول هدير الجمل إذا بلغ الهدير ، وقد كَشّ يكش كشيشا .

* الكَتيت ـ الهدير إذا ارتفع قليلا فوق الكشيش ، كتّ يكت كتيتا .

* الهدير ـ هدر البعير يهدر هدرا وهديرا ، وهدّر صوّت في غير شقشقة

* القَرْقرة ـ هدير البعير إذا صفا صوته ورجّع ، وقد قرقر .

* الجَرْجرة ـ تردّد هدير الفحل في حنجرته ، وقد جَرْجَر ، وفحل جُراجِر كثير الجرجرة » .

وصفوة القول أن الإشارات التي عثرنا عليها ، والكتب التي وصلت إلينا ، تبين أن العرب تنبهوا إلى معالجة الإبل منذ زمن مبكر ، فألفوا أول ما ألفوا عنها في النصف الثاني من القرن الثاني أو الأعوام الأولى من القرن الثالث . ثم توالت الكتابة عن الإبل . فقد توصلنا إلى عناوين خمسة عشر كتاباً خاصةً بالإبل ، وأحد عشر كتاباً آخر أفردت لها فصلاً أو أكثر .

وكان اللغويون في العصور الأولى أعظم ولعاً بهذا الموضوع ، حتى دوّن اللغويون الذين توفوا في القرن الثالث وحده أربعة عشر كتاباً مفرداً للإبل . أضاف إليها القرن الرابع كتاباً واحداً . ثم لم نعد نسمع عن لغويين ألفوا في

(١) ٣٥٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الإبل خاصة . أما الكتب العامة التي تعرضت للإبل بين الموضوعات التي تعرضت لها ، فألف أربعةٌ منها لغويون ماتوا في القرن الثالث ، وواحداً لغوي من أهل القرن الرابع ، وثلاثةٌ لغويون توفوا في القرن الخامس ، واثنين ماتا في القرن السادس ، وآخرها ظهر في قرننا هذا .

ولم يصل إلينا من الكتب الخاصة بالإبل غير كتاب الأصمعي ، الذي كان بعيد الأثر في بقية الكتب اللغوية التي تعرضت لهذا الموضوع بعده . أما الكتب العامة فلا نعرف شيئاً عن أولها ، لأنه لم يصل إلينا . كذلك لم نعثر من كتاب المنتخب والمجرد لكراع النمل إلا على قطعة ، وربما كان في الأجزاء المفقود منه ما يضيف إلى معلوماتنا عنه أو يغيرها بصدد موضوعنا . ولما كانت هذه القطعة الموجودة لا تضم عن الإبل غير فصل واحد قصير ، وكان كتاب مباديء اللغة للإسكافي يضم فصلاً واحداً أيضاً عن اللغة ، وكتاب الألفاظ (وتهذيبه) يضم بابين ، وكتاب كفاية المتحفظ يضم ثلاثة فصول قصيرة ، وكتاب النعم ... المنسوب لابن قتيبة صورة مشوهة لأبواب الغريب المصنف لأبي عبيد ، كانت هذه الكتب جميعاً غير ذات قيمة في هذا الصدد .

ويبقى لدينا أربعة كتب فقط ، انتهج فقه اللغة للثعالبي منها منهجاً خاصاً ، إذ لم يعقد كتاباً مفرداً للإبل بل فرق ما يتعلق بها في فصوله المختلفة . وبالرغم من ذلك ، نجد الكتب الأربعة تعالج جوانب مشتركة من الابل ، هي ضراب الابل وحملها ونتاجها ولبنها وأولادها وأعمارها وطعامها وشرابها وصفاتها وألوانها وسيرها وأدواتها ، وكل هذه الأمور نجدها في كتاب الأصمعي أيضا . وإذن فقد صار هذا الكتاب القدوة التي يُحتذى من بعده ، في المادة ، وفي النواحي التي يجب تناولها . ليس ذلك حسب ، بل نجد كل الكتب التي تعرضت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

للابل تبدأ ككتاب الأصمعي بفصراب الابل وحملها ونتاجها ، فقد احتذته في الترتيب أيضاً ، وإن اختلفت معه في ترتيب بقية الفصول . يضاف إلى ذلك أنها احتذته في ترتيب المواد اللغوية في داخل الفصول ، فرتبت بعضها زمنياً أي وفق المراحل التي تمر بها الابل في هذا المجال ، ولم تلجأ في بعضها الآخر إلى ترتيب ما . فالأصمعي هو الذي مهّد الطريق ، وأبان معالمها ، ورسم حدودها التي لم يتعدّها أو يغيرها مؤلف بعده .

ولا يعني ذلك أن الكتب كلها متماثلة ، لا نستطيع أن نميز بينها . فقد كان الأصمعي يحتفل احتفالاً كبيراً بالشواهد المتنوعة بين شعر وأمثال وأقوال وأخبار . فاضطر أبو عبيد وابن سيده بعده إلى حذف الكثير منها . وكان أبو عبيد يلتزم أن يعزو كل قول إلى راويه ، وأن يصرح بالمواطن التي اتفق فيها اللغويون أو اختلفوا . فاضطر ابن سيده بعده إلى حذفها . وكان الثعالبي أكثر من غيره قصداً إلى الايجاز ، والاكتفاء باللفظ وتفسيره حسب ، دون أن يأبه لأمر آخر . أما مخصص ابن سيده فأكبر هذه الكتب ، وأوسعها مادةً لغوية ، وأكملها تناولاً للفظ الذي يعالجه وتجليةً لجوانبه المختلفة ، وأحفلها بالآراء والتوجيهات النحوية والصرفية ، وأكثرها مراجع متنوعة بين رسائل لغوية صغيرة ، ومعاجم كبيرة ، ومصنفات نحوية . ولا يبارى « الافصاح » للمؤلفين المعاصرين الكتب السالفة في المادة اللغوية ، فهي فيه قليلة جداً ، ومجردة عن الشواهد والتعليلات ، ولكنه أجمل منها طبعا ، وأكثر إفادةً بالنواحي المحدثة التي تيسر على القارىء الوصول إلى ما يريد ، وأعظم محاولة إلى حد ما إلى تجلية التفسير الذي يأتي به للمادة التي يعالجها .

الدكتور حسين نصار

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net